

جواب سؤال

ماذا وراء معركة استعادة الموصل!

السؤال:

أعلن عن بدء المعركة لاستعادة الموصل يوم ١٧/١٠/٢٠١٦، فما المقصود منها؟ وكيف يمكن أن نفهم التصريحات السابقة للمسؤولين الأمريكيين الذين كانوا يتوقعون حرب الموصل بعد سنوات؟ وهل سينتهي تنظيم الدولة إذا أخرج من الموصل؟ ولماذا هذا التراشق بين الحكومة العراقية والنظام التركي؟ ولماذا الإصرار التركي على المشاركة؟

الجواب:

١- إن من يتدبر الأحداث الجارية يراها حلقة في سلسلة حلقات مقصود منها إكمال تفكيك العراق بإيجاد إقليم للسنة وآخر للشيعنة بعد أن أصبح إقليم الأكراد ماثلاً للعيان، وهذه السياسة لم تبدأها أمريكا اليوم ولا منذ احتلال العراق، بل قبل الاحتلال منذ فرضت أمريكا مناطق الحظر الجوي على شمال العراق عام ١٩٩١، حيث أصبحت منطقة كردستان شبه دولة! وعندما احتلت أمريكا العراق ٢٠٠٣ كان النظام الذي وضعه بريمر حاكم العراق المحتل، كان على أساس طائفي مذهبي بمحصر للطوائف والمذاهب... لقد شكل بريمر في تموز/يوليو ما سمي مجلس الحكم العراقي، وفي آب/أغسطس ٢٠٠٣ عين لجنة دستورية تحضيرية مؤلفة من ٢٥ عضواً... وصاغت اللجنة مشروع دستور يجعل العراق دولة اتحادية "فدرالية" على أساس الأقاليم مثل إقليم كردستان... ثم أجريت الانتخابات العامة للتصويت عليه في ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥ لإضفاء الشرعية على العملية الدستورية مثلما نص عليها قانون الإدارة الانتقالي. وبالرغم من الأساليب المعوجة التي استعملت وشملت العنف، فإنه فقط ٥٨% من الناخبين المسجلين قاموا بالتصويت... وهكذا أقر هذا الدستور! ومن مواد هذا الدستور:

نصت المادة (١) من دستور جمهورية العراق لسنة ٢٠٠٥ على أن (جمهورية العراق دولة اتحادية)... ونصت المادة (١١٦) على أن (يتكون النظام الاتحادي في جمهورية العراق من عاصمة وأقاليم ومحافظة لا مركزية وإدارات محلية)... أما المادة (١١٧) أولاً) فإنها قضت بأن (يقر هذا الدستور عند نفاذه إقليم كردستان وسلطاته القائمة إقليمياً اتحادياً)... والذي ينظر في صلاحيات هذا الإقليم يدرك مدى تفكيك العراق في المستقبل القريب! وبخاصة وأن المادة (١١٩) تنص على "إمكانية استحداث أقاليم أخرى"... وهكذا بذرت أمريكا بذور تفكيك العراق من خلال هذا الدستور سيئ الذكر بل فوق سوء الذكر...

٢- لقد شعرت أمريكا بزهوة النجاح لإقرار دستور تفكيك العراق، وكلفت عملاءها بوضعه في سلم أولوياتهم لتهيئة الأجواء العامة له فلم يفلحوا، فقد كانت المناطق التي أصبح يطلق عليها مناطق الشيعة والسنة لا يوجد فيها نشاط انفصالي حتى ولو بمسمى أقاليم، حتى إن هذه التسمية بمناطق شيعية وسنية لم تكن موجودة وغريبة عنها... فبدأت أمريكا بتهيئة الأجواء على طريقته فعمدت إلى المالكي وهو شخص مشيع بالحقد على الإسلام والمسلمين ونصبته رئيساً للوزراء في ٢٠/٥/٢٠٠٦ وكانت مهمته الأساسية إيجاد العداوة بين السنة والشيعة بشكل يجعل التنافر بينهما قوياً! لقد كان صنيعتها المالكي مذهبياً

بامتياز، استفز الآخريين وأثارهم، فأصبحت الأجواء مهياة للتقسيم، والأقاليم، وقد نجح في هذا الدور، فغرس المالكي العداوة مع السنة والكردي حتى أصبح تقسيم العراق مطلباً لكثير من الناس... وقد نجح المالكي في إيجاد هذه العداوة وتهيئة الأجواء للأقاليم والتقسيم، وهي المهمة الرئيسية التي وظفته أميركا رئيساً للوزراء لتنفيذها، ولهذا مددت له في الحكم مدة أخرى حتى ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠١٤ فكانت أيام حكمه سوداء... حتى إذا كان شهر ٢٠١١/١٢ وخرجت أميركا بمظهرها العسكري وبقيت بحقيقتها الأمنية والسياسية كانت شجرة الفتنة قد أئعت، وزادها ثمراً شريراً المالكي، فتجبر وظلم بعنجهية فريدة من نوعها، كلما خبت أشعلها من جديد بأعمال وأقوال استفزازية... وتصاعد الشحن المذهبي في إنشاء المليشيات الشيعية المسلحة.

لقد وجدت أميركا ضالتها في شخص المالكي لتعميق الشرخ بين المسلمين فكان يعتمد استفزاز السنة بكل ما أوتي من حقد وكيد وظلم وعسف... فإذا طالب الناس برفع الظلم أو بحقوقهم بطش بهم ورفض أي حق لهم كما حصل مع أهالي مناطق السنة عندما تحركوا سلمياً عام ٢٠١٢، وكانت مطالبهم عادية تتعلق برفع الظلم عنهم وإطلاق سراح سجنائهم وخاصة من النساء وتجنب المدهامات الليلية العشوائية... ولم يكن من بينها أي مطلب لإسقاط النظام، ولكن حكومة المالكي رفضتها واعتبرتها مطالب تخدم الإرهابيين، وبدأ يسحق الاعتصامات السلمية حتى يزداد الاحتقان لدى أهل هذه المنطقة ويطالبوا بالانفصال أو إقامة إقليم فدرالي. ولا يقوم بذلك المالكي وحكومته إلا بإيعاز أو برضا أسياده الأميركيين لأنه مسير من قبلهم. وبجانب ذلك قامت بعض الحركات الشيعية تطالب بإقامة إقليم للشيعية في الجنوب على غرار إقليم كردستان حتى قبل اندلاع الاحتجاجات السلمية في الأنبار... ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تسابقت الدول المجاورة في إبراز الناحية المذهبية... وكل ذلك تنفيذاً للسياسة الأميركية التي لا تريد العراق وحدة جامعة، بل مزقاً متنافرة متناحرة، يقتل بعضها بعضاً! ويعض كل طرف بالنواجذ على أن يكون له إقليم، وأصبح يُنادى علناً بالإقليم...

٣- في هذا الجو كانت تحركات تنظيم الدولة ليكون له موطن قدم في الموصل فرأت أميركا أن دخوله في هذه الأجواء مع مليشيات الشيعة سيعمق الشرخ بشكل أشد وأقسى فيخدم الهدف الأميركي من زيادة الشقاق بين السنة والشيعة، فجعلت المالكي يسحب الجيش من الموصل تاركاً أسلحته وأموال البنوك وهكذا كان... ففي حزيران عام ٢٠١٤ أعلن عن سقوط الموصل بيد تنظيم الدولة... وقد تواترت الروايات بأن الجيش العراقي انسحب من دون خوض معركة حقيقية، بل إنه سلم أسلحته وعتاده وملابسه وترك الأموال في بنوك الموصل وفر جنود الجيش وضباطه وقوات الأمن رغم تفوقهم في العدد والعدة. فالجميع بدأ يشكك في الموضوع ويشير إلى وجود تواطؤ وتقصد في تسليم المنطقة لأغراض معينة. وكان هذا الرأي بالتواطؤ قوياً لدرجة أن المالكي اعترف بأن ما حدث مؤامرة ("ما شهدته الموصل كان مؤامرة" صفحة المالكي على الفيسبوك، الحرة الأمريكية ٢٠١٥/٨/١٨) ولكنه حاول أن يبعدها عن نفسه مع أنها لصيقة به فهو الذي كان رئيساً للوزراء وقائد الجيش والمسؤول الأول عن المعركة! وقد تكرر مثل هذا في الرمادي بسحب القوات الموجودة هناك والتي يطلق عليها الفرقة الذهبية من دون مقاومة. وبدأت المطالبة بمحاسبة المالكي والمسؤولين عن ذلك ولكن جرت تغطية على الموضوع وأسدل الستار عليها... ويبدو أن أميركا رأت أن تقفل الموضوع لأن يدها غارقة في سحب الجيش لأنها أرادت تسهيل وجود التنظيم على اعتبار أنه سني فوجوده بجانب المليشيا الشيعية يزيد الشرخ اتساعاً بين السنة والشيعة تهيئة لفدرالية إقليمية... لهذا أمرت بسحب الجيش لتسهيل دخول التنظيم. ليس هذا فحسب بل إن أميركا رفضت قصف التنظيم عند دخوله الموصل، فقد صرح أوباما في ٢٠١٤/٦/١٣ بأن واشنطن "لن تشارك في عمل عسكري في غياب خطة سياسية يقدمها العراقيون"، هذا على الرغم من الاتفاقية الأمنية المعقودة

بين أمريكا وبين العراق، وعلى الرغم من طلب الحكومة العراقية منه ذلك كما قال وزير الخارجية العراقي زيباري في جدة مساء الأربعاء ٢٠١٤/٦/١٨ "إن بغداد طلبت من واشنطن توجيه ضربات جوية للمسلحين"، وقد أكد ذلك رئيس هيئة الأركان الأمريكية الجنرال ديمبسي في جلسة الكونغرس، ما يعني أن أمريكا ليست في عجلة من أمرها في التدخل بل تؤخره إلى أن تصبح الأجواء مهيأة لتنفيذ مشروع الأقاليم بتسخين الأجواء بين السنة وبين الشيعة فيوافق الطرفان على إقليم لكل منهما كما هو حاصل في كردستان العراق، وبعد ذلك تأمر أمريكا بقتال التنظيم وإخراجه من الموصل.

إن السياسيين الواعين يدركون ذلك ويتابعونه، وتُدكّر هنا بالخبر الذي نقله موقع "العراق اليوم" بتاريخ ٢٠١٥/١٢/٦ عن مصادر دبلوماسية رفيعة المستوى سرّبت له مباشرة أخباراً تتعلق بالشرط الأمريكي لإنهاء تنظيم الدولة في البلاد فورد فيها: "إن القبول بقيام ثلاثة أقاليم رئيسية تخضع لحكم فدرالي في بغداد هو الشرط الأساس لحسم ملف تنظيم داعش وتطهير العراق منه وإنهاء جميع السلطات الثانوية التي تحل مكان السلطة في بغداد الآن، وخاصة المليشيات المقادة بأوامر إيرانية". وذكرت المصادر نفسها أن: "... واشنطن تعهدت أن تتولى حماية الحكم الفدرالي الجديد في العراق بتأييد من مجلس الأمن...".

وهكذا فإن أمريكا عمدت إلى المالكي بعصبيته المذهبية فشغلته لاستفزاز السنة لإيجاد العداوة بينهم وبين الشيعة ومن ثم تمزيق العراق بالأقاليم ورباط هش مع المركز لا يلبث أن ينقطع وينكسر... وكذلك استغلت نظرة التنظيم للشيعة فسهلت دخوله للموصل لزيادة الشرخ بين الفريقين، وهي قد استغلت التنظيم مرة أخرى عندما أعلن الخلافة بعد دخوله الموصل فركّزت أمريكا على أعماله من قتل وحرق وتشريد للمدنيين وحاولت ربط هذه الأفعال بالخلافة، ولكن الله أحبط أعمالهم فعلم الناس أن خلافة البغدادي ليست إلا لغوياً وأن الخلافة التي فرض الله العمل لإقامتها وبشر الرسول ﷺ بعودتها هي حق وعدل... يهاجر الناس إليها للأمن والأمان، وتنشر الخير ليس بين ساكنيها فحسب بل تحمله إلى العالم.

٤- أما الوجود التركي في شمال العراق فهو كذلك للغرض نفسه أي إعطاء "نفس" للسنة في العراق كما تعطي إيران "نفس" للشيعة... وهكذا يساهم الوضع الإقليمي في التشجيع على الأقلية! فدخول تركيا كان لتعميق هذا الشرخ فتظهر كأنها تحمي السنة في مقابل حماية إيران للشيعة... وكل ذلك لتحقيق هدف واحد وهو تسهيل الانقسام.

أما إصرار تركيا على المشاركة في هذه المعركة وحدث سجال وتراشق بين أردوغان والعبادي حول الموضوع، واستنكار أردوغان مطالبة الحكومة العراقية بانسحاب القوات التركية من معسكر بعشيقية "شمال شرق الموصل" مع أنه بعلم الحكومة العراقية... إن هذا الأمر لا هو بيد الحكومة العراقية ولا هو بيد الحكومة التركية بل هو وفق السياسة الأمريكية ليظهر أردوغان كأنه ينصر السنة في مساجلته مع العبادي ومن ثم يشجع على المشروع الأمريكي "الأقاليم"، وكذلك يفعل العبادي، فهو يثير موضوع القوات التركية دون غيرها من القوات التي تملأ أرض العراق وسماؤه! وذلك لكسب التعاطف الشيعي... والأمران للغرض نفسه أي زيادة الاحتقان بين السنة والشيعة لخدمة الغرض الأمريكي لتفكيك العراق على شكل أقاليم... واستمرار هذا السجال: يستمر أو يتوقف يحده المشروع الأمريكي. وهذه ليست أول مرة تطالب بها الحكومة العراقية بسحب القوات التركية فقد طالبت في نهاية السنة الماضية واجتمعت الجامعة العربية من أجلها وأيدتها ورفعت الأمر إلى مجلس الأمن ليتخذ قراراً يدين تركيا ويطلبها بالانسحاب، ولكنها كانت زوبعة في فنجان وخمدت! وهكذا فإن بقاء القوات التركية هو لهذا الغرض أي لتنفيذ المشروع الأمريكي "الأقاليم"، ولم يعد هذا الأمر سراً، بل صرح به أردوغان مطالباً بإقليم للموصل أسوة بإقليم الشمال، فهو يلوم الذين وافقوا على إقليم الحكم المحلي شمال العراق أي إقليم كردستان ولكنهم لم يوافقوا بالمثل على إقليم الموصل... فقد قال في

خطابه الذي ألقاه في "بيش تبه Beştepe" فيما يتعلق بوضع الموصل: ("... الذين صوتوا بـ"نعم" في اقتراع الحكم المحلي شمالي العراق، لم يقولوا "نعم" لنفس الشيء في الموصل". صحيفة تايم تورك ١٨/١٠/٢٠١٦)

٥- أما لماذا هذا الإصرار على حرب الموصل الآن بعكس تصريحات الأميركيين السابقة، فالمسألة كما يلي:

كانت أمريكا ترى أن الوقت لم يحن للحرب على التنظيم وإخراجه من الموصل، ولم يكن أوباما في عجلة من أمره لينتهي هذا الأمر في عهده، بل كان بعض المسؤولين الأميركيين يصرحون أن هذا الأمر سيأخذ سنوات... ولكن حدثت أمور جعلت أوباما يعجل في ذلك... لقد كان أوباما يرغب أن ينهي عهده المشؤم بنجاح أو شيء من نجاح يذكر له... وكان يعوّل في ذلك على سوريا بحشود إيران ومليشياتها وتكثيف القصف الجوي الروسي، ولكن يبدو أنه فقد الأمل أو كاد بسبب هذا الصمود العظيم لأهل سوريا وخاصة حلب، فصرف بصره إلى العراق نحو الموصل لعله يجد أملاً هناك بنجاح أو شيء من نجاح! وسار على عجل ليدخل الموصل حتى إنه ترك جيوباً خلفه ومنها الحويجة... (قالت صحيفة وول ستريت جورنال إن القوات العراقية المتقدمة نحو الموصل تجاوزت بعض الجيوب التي يسيطر عليها تنظيم الدولة مثل الحويجة الواقعة وسط محافظة كركوك، الأمر الذي يتيح لمقاتلي التنظيم إمكانية شن هجمات مضادة في مناطق أخرى في العراق. وأوضحت الصحيفة في تقرير لها أن القادة العراقيين لم يجعلوا استعادة الحويجة ضمن أولوياتهم رغم أنها تقع في الطريق الواصل بين بغداد العاصمة والموصل ثاني أكبر مدن البلاد... ووصف أحد قادة المليشيات الشيعية في كركوك - وهو ميثم الزبيدي - الحويجة بأنها "سكين في خاصرة شمال العراق"، قائلاً إن الحكومة استعجلت استعادة الموصل قبل الحويجة لأسباب سياسية وضغوط دولية... الجزيرة ٢٨/١٠/٢٠١٦).

وهكذا انطلقت معركة الموصل يوم ١٧/١٠/٢٠١٦ حيث ذكر أنه يشارك فيها ١٤٠ ألف جندي من الجيش العراقي وقوات البشمركة وقوات من الحشد العشائري والوطني وغير ذلك. وقال الناطق الرسمي باسم وزارة الدفاع الأمريكية بيتر كوك: ("إن التحالف الدولي بقيادة واشنطن يقوم بدعم القوات العراقية بشكل كامل خلال معركة الموصل" وأشار إلى "وجود قوات أمريكية بالخطوط الخلفية في معركة استعادة الموصل بهدف تقديم المساعدة والدعم اللوجستي للجيش العراقي وقوات البشمركة...") (رويترز ١٧/١٠/٢٠١٦) وكانت أمريكا قد أعلنت أواخر أيلول الماضي أنها ستزيد عدد قواتها في العراق بإضافة نحو ٦٠٠ جندي إلى ٤٤٠٠ آخرين عقب طلب رئيس الوزراء حيدر العبادي. فالمعركة يراد لها أن تستمر أثناء الحملة الانتخابية الأمريكية وما بعدها، حتى ينهي أوباما عهده بتحقيق انتصارات تسجل له وللديمقراطيين في التاريخ الأمريكي. ومع أن معركة الموصل ليست سهلة بسبب مشاحنات القوى الداخلية فيما بينها، وبسبب مشاحنات القوى الإقليمية "تركيا وإيران" فيما بينها، حيث تجعل هذه المشاحنات قتال الموصل يقوم ويقعد... ولكن ما دام العامل المؤثر في هذه القوى هو العامل نفسه "أمريكا" فإن هذه المشاحنات لا يُتوقع أن توقف المعركة طويلاً، بل حسب ما تقتضيه سياسة أمريكا...

٦- لقد أعطت أمريكا دوراً لأوروبا، ليس مستقلاً، وإنما باعتبارها جزءاً من التحالف، وبخاصة فرنسا وبريطانيا، فتنضبط بقيادة أمريكا للتحالف، وذلك حتى لا تبقى بعيدة فتشوش على أهداف أمريكا من تلك الحرب وهي تفكيك العراق إلى أقاليم... وكالعادة فإن فرنسا تحاول البروز في مثل هذه الأحداث كرجع لما أصابها من التنظيم في فرنسا، فعقدت مؤتمراً في باريس يوم ٢٠/١٠/٢٠١٦ لبحث "المستقبل السياسي لمدينة الموصل"، ودعت إليه وزراء خارجية وممثلين لعشرين دولة ومنظمة حماية المدنيين. ودعت إلى مؤتمر آخر لوزراء الدفاع في التحالف الدولي ضد تنظيم الدولة يوم ٢٥/١٠/٢٠١٦. وعقب هذا

الاجتماع قال وزير الدفاع الأمريكي آشتون كارتر باعتبار بلده هي القائد للتحالف: (إن المناقشات تركزت على كيفية إنهاء سيطرة تنظيم الدولة على الرقة... وإنه تم تحديد ما يمكن للتحالف فعله لتسريع تنفيذ الخطة وكيفية حماية أراضي الدول الأعضاء من هجمات التنظيم... الجزيرة ٢٦/١٠/٢٠١٦)، وهذا يشير إلى قيادة أمريكا لهذه الدول حيث تتحدث عن حماية أراضي الدول الأعضاء من هجمات التنظيم.

٧- أما هل سينتهي التنظيم إذا سقطت الموصل من يده؟ فلا يبدو ذلك، وإنما سيلجأ التنظيم للحرب من كر وفر وهجمات هنا وهناك ويواصل أعماله من خارج المدن، فقد أُخرج من وسط الرمادي ولكنه بقي حواليتها، وهكذا إذا أُخرج من الموصل فإنه سيقتل يحوم حواليتها ليعود كما كان قبل عام ٢٠١٤، وكما هو الآن عملياً، تنظيماً مسلحاً يقاتل في الصحاري والجبال وفي أطراف المدن والقرى... ولعدم وعيه السياسي فقد يقوم بأعمال يراها في مصلحته فُتستغل لمصالح الدول الكافرة المستعمرة، ولعله يدرك ذلك...

٨- وأما أمريكا فإنه ليس من المحتمل أن تتخلى عن خطتها في تقسيم العراق إلى ثلاث فدراليات، بل أصبح ذلك سياسة الدولة فيما يتعلق بالعراق، فقد أقر الكونغرس عام ٢٠٠٦ المشروع المتعلق بتقسيم العراق إلى ثلاثة أقاليم فدرالية كردية وسنية وشيعية، ولكن القرار لم يكن ملزماً للرئيس، إلا أن الرئيس بوش أعلن يومئذ أن "الظروف غير مؤاتية لتنفيذ القرار". وقد تقدم بمشروع القرار السناتور جوزيف بايدن والذي أصبح نائباً للرئيس الأمريكي أوباما عام ٢٠٠٩. ونشط بايدن بالعمل في اتجاه تنفيذ القرار بدون الإعلان رسمياً عن ذلك وقد سلمه أوباما ملف العراق... هذا وقد صاغت أمريكا الدستور العراقي على هذا الأساس. فتكون أعمالها الآن وفي المستقبل تتجه نحو تطبيق ذلك، فيعقب استعادة الموصل والبحث في الصيغة السياسية لإدارة هذه المناطق التي يطلق عليها مناطق السنة، وهي الحلقة الأضعف لأن مناطق الشيعة أخف صعوبة... ومع ذلك فليس من السهل أن يمر هذا المشروع، فإن في العراق رجالاً مخلصين لله سبحانه، صادقين مع رسول الله ﷺ، ولن يقبلوا بأن تمزق بلادهم، وسيقفون في وجه تلك المشاريع لإحباطها بإذن الله القوي العزيز.

٩- وفي الختام، فيا أهل العراق، يا أهل الرافدين، نحاطبكم كما خاطبناكم من قبل: لقد جمعكم الإسلام قروناً، وأظلتكم رايته رَدْحاً من الزمن، فكنتم أقوىاء أعزاء، تتقاسمون الخير معاً، وتحاربون الشر معاً... بلدكم أرض البطولات، أرض القادسية، أرض البويب، بلد هارون الرشيد والمعتمصم، بلد صلاح الدين، بلد الفاتحين السابقين واللاحقين إن شاء الله. إن العراق الواحد قوي بأهله، والعراق الممزق ضعيف بمزقه... ولئن ظن الأكراد أن وجود إقليم كردستان أو دولة كردستان ستوجد لهم عزاً فهو لن يتجاوز المدى القصير ولكنه مقتل لهم بعد حين... ولئن ظن السنة أن وجود إقليم لهم في شمال العراق وغربه سيوجد لهم عيشاً هائلاً فهو لن يتجاوز فترة ليست ذات شأن، ثم يكون عليهم من بعدُ شقاء وضنكا... ولئن ظن الشيعة أن وجود إقليم لهم في الجنوب سيوجد لهم قوةً فيها جبروت فهو لن يكون إلا لقليل وقتٍ، ثم تعود الأمور ضعفاً وذلة.

يا أهل الرافدين: انبذوا الطائفية والعصبية «دَعُوها فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» أخرجها البخاري عن جابر... اتركوا المسميات الطائفية والمذهبية، وتمسكوا بالاسم الذي سمانا الله به، ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾، فعودوا إليه واعتصموا به تعزواً، وإلا أصابكم الذل من كل مكان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

التاسع والعشرون من محرم الحرام ١٤٣٨ هـ

الموافق ٣٠/١٠/٢٠١٦ م